من عمل صالحاً فلنفسه

عبد الملك القاسم

المقدمة

الحمد لله هدى من شاء من عباده، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الأمة ولله الحمد تزخر بأهل الأعمال الصالحة والأفعال الطيبة، وهذه مجموعة مختارة من قصص سمعتها لأخبار السائرين إلى الدار الآخرة، كتبتها للاقتداء والتأسي، وترك الغفلة وبذل الوسع في طاعة الله عز وجل، وكذلك الرغبة في إشاعة الخير والدلالة عليه.

وهي امتداد لكتيبات سابقة مثل: «هل من مشمر؟» و«غراس السنابل» وغيرهما.

أدعو الله عز وجل أن يكتب فيها النفع والفائدة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

العابدة المطلقة

تـــــزوجت من رجل يكبرها بســــنوات، وكانت فرحة جذلي بهذا الزواج، رغبة في أن يكـون مكتمل العقل ناضج الفكـر، لكنه كـان على عكس ظنهـا، فقد كـان سـيء الخلق لا يعجبه العجب ولا يرضى عن كل جهـد، حـتى كـثر الشــقاق وبــدأت تظهر معــالم الفرقة وسارت الأمور من سـيء إلى أسـوأ فكـانت النهاية المحتومة بعد صــبر طويــل.غــادرت مـنزل الـزوج مطلقـة، وهي تحـدث نفسـها: لعل الله عز وجل اختار لي أن أتفرغ للعبادة والطاعة، وتبرأ ذمـتي من مسـئولية الـزوج! وكــــان الله عز وجل لطيفًا بها فجعل قــــرة عينها في الصلاة، تفـرح لإقبـال الليل وإدبـار النهــار حــتى تنــاجي ربها في الثلث الأخــير، وأعدت لنفسها صيام داود عليه السلام فهي تصـوم يومًا وتفطر يومًـا. واسـتمرت الأيـام ولم تشعر بوحشة ولا فراق، ولم يكن حديث الناس عن المطلقة يعـدل ليلة من المناجـاة لربها!إنها امـرأة صـابرة محتسـبة علمت أن ما نزل بها من مصائب الـدنيا فرضـيت بقـدر

الله عز وجل. ويسر الله لها الفرج القــريب، وكان اليسر بعد العسر..

فلم تطل بها الأيام حتى أتاها زوج يطلب يدها. فترددت كثيرًا حتى أشار عليها من تثق فيه، وقـال لهـا: ما سـبب الـتردد؟ ولمـاذا لا توافقين؟ قالت: أريد أن أصوم وأصلي!

قال لها: خدمة الــزوج عبــادة وقربة إلى الله عز وجل فــأنت في خــير وعبــادة. لكن نفسها تراودها بين الحين والآخر بين الرفض والموافقة. وعنـدما اسـتخارت الله عز وجل مرات عديدة استقر بها الأمر إلى الموافقة.. عنــدها ســأل الخــاطب: هل لها شــروط؟. قــالت: نعم لي شــرط واحــد: أن يــأذن لي بصيام ثلاثة أيام من كل أسـبوع، قـال وكـان محبًا للخير، مقبلاً على صـاحبة الطاعـة: لك الشــرط. لقد كـان همها منصــرفًا إلى نافلة تستجوب إذن الـزوج كما أمر النـبي بـذلك. فـرحت بالموافقة وسـرت بهـا. ودخلت بيت الزوجية وهي تحلم بأمل عظيم ويراودها رجـاء كبـير وحسن ظن بالله عز وجل الـذي يسر لها أمر العبـادة والطاعة أن يتقبلها منها

وأن يـــدخلها الجنة برحمتـــه! «ومن عمل صالحًا فلنفسه» .

ثلاثة أجزاء

امرأة شـابة متزوجة ولها أبنـاء صـغار، لكنها محبة لكتاب الله عز وجل، تقـرؤه آنـاء الليل وأطـــراف النهـــار، لا تكل ولا تمل من تـرداده. تقـرأ ما تيسر لها من القـرآن حفظاً عن ظهر قلب. أو قـراءة في المصـحف. لم يكن عمل المــــنزل، ولا رعاية الأبنـــاء، ولا الاهتمـــام بـــالزوج، صـــارفًا لها عن أحب ما تملك وهو قـراءة كتـاب الله عز وجـل. ولما أتى شهر شعبان بدأت تستعد لشهر الصـيام وتعد العدة: فقامت في مطبخها لتحضـير ما يكفي لشـهر كامل من المـأكولات المرغوبة في شهر الصيام، وكان همها التفرغ للعبـادة في هــذا الشــهر العظيم، وقـالت وهي تعد العدة: لعله آخر رمضـان... شـمري يا نفس واتركي لذيذ النوم وكثـير الكسل والخمـول. ولما دخل أول يوم من شهر رمضان وضـعت لنفســها ولأبنائها جــدولاً لقــراءة القــرآن وتلاوتــه. فيسر الله أمرها وأعانهــا، وفي ما بين المغـرب والعشـاء وهو وقت ضـائع عند الكثــير كـانت تقــرأ ثلاثة أجــزاء! نعم ثلاثة

أجـــزاء فيما بين العشـــاءين ولم ينقص من طعامها شي، ولا من تـرتيب منزلهـا، ولا من شئون زوجها. لقد أعانها الله عز وجل ويسر لها طريق الطاعة بـــــالتوفيق مع العــــــزم والمثابرة.

ولا تـــزال تـــردد في نفســـها بين الحين والآخر في وجل وخـوف قـول ابن عـوف: لا تثق بكـثرة العمـل، فإنك لا تـدري أيقبل منك أم يرد، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري أكفرت عنك أم لا! إن عملك مغيب عنك كله.

النفقة

أعمال الخير متنوعة متعددة كل بحسبه وقدره! هناك من فتح الله عليه في أمر الصيام فهو لا يفطر، وآخر في القيام فلا يفتر، وثالث في الإنفاق فلا يتردد، ورابع في تعليم كتاب الله عز وجل، وخامس في رعاية الأيتام والأرامل. وصاحبنا فتح الله على يديه في الإنفاق فكان ينفق من ماله الكثير على قلته. فها هو يكفل الأرامل ويواسي المحتاجين، ويحرص على تفقد أحوالهم. ثم هو أيضًا يساهم في المشاريع الخيرية، وأحسب أن له في كل موطن نفقة سهمًا حتى وإن كان صغيرًا فقد تأثر بقول قرأه: «استطعم مسكين عائشة -رضي الله عنها- وبين يديها عنب. فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة»[1].

وعندها كان ينفق الخمسة ريالات لعامل النظافة ويسقيه شربة الماء ويناوله اللقمة،

[1] () التمهيد لابن عبد البر (4/302).

ويشتري للصـغار قطعة حلـوى يحبونها رغبة في إدخال السرور على قلوبهم.

يومًا سأله أحد أخص المقربين له وقـال: راتبك قليل، وأظن أنك تنفق أكثر من مرتبك فهل لديك مصدر دخل إضافي؟ فأجاب بثقة: الحمد لله ما شـكوت من ضـائقة ماليـة! إلا ضائقة في صدري بين الحين والآخر، أن أرى الفقـــير ولا أجد الكثـــير لأنفقه لـــه. هـــذه الضـــــائقة، أما غيرها فـــــأمري ولله الحمد ميسر، فما استدنت طوال حياتي، ولا أعرف الـــــدين مطلقًـــــا، ونعم الله علي لا تعد ولا تحصى!

وقفة:

في الحـــــديث القدسي أن الله عز وجل قال:

«يا عبـــــادي، إنما هي أعمـــــالكم أحصــيها لكم، ثم أوفيكم إياهــا، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غــير ذلك فلا يلـــــــــومن إلا نفسه» [رواه مسلم].

وقفة للمشمرين

قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: 7، 8**]**.

قال **بعض أهل اللغة:** وإن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرة**.**

وقيل: الذر: هو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

قال ابن القيم-**رحمه الله-:**

(وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية-قدس الله روحه- يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح، وقرة عين فحيث لم يجد ذلك، فعمله مدخول)[1].

---

1 () المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية(1/153)

مصلى الجامعة

كـــانت الجامعة بداية انطلاقة أعمـــال النوافل لـديها، وكـان المصـلى محضـنًا طيبًا لبث روح المســــابقة إلى الله عز وجــــل. وكانت المحاضرات الـتي تلقى نـبراس خـير ودلالة.

سـمعت بفضل صـيام التطـوع، وسـرها سماع حديث النبي : **«ما من عبد يصوم يومًا، في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سـبعين خريفًا»** [متفق عليـه]، فكـانت بعد هـذا الحـديث من المســارعات إلى الصــيام بكــثرة، فأحيانًا تصــوم يومًا وتفطر يومًــا، وفي كل شـــهر تصوم أيام البيض، ويومي الاثـنين والخميس من كل أسبوع.

وكانت أول مشكلة واجهتها تنـاول غـداء الطعــــام مع أهلهــــا، فاعتـــذرت بتأخرها وانتظارهم لها، وقالت: لا تنتظـروا، وتنـاولوا الطعــام، وإذا أتيت من الدراسة أنــام حــتى العصر، وبعد العصر أتناول الغداء. فكــان لها ذلك، فـإذا أذن المـؤذن لصـلاة العصر وأدت

الصـــلاة دلفت إلى المطبخ، فلا يكـــون فيه أحــد، فتغــير مواضع الطعــام وتغسل بعض الأطبــاق حــتى يظن أنها تنــاولت غــداءها. وهكـذا اسـتمرت بها الحـال شـهورًا طويلـة، وإن رأتها والـــــدتها يومًا أســــرت لها بأنها صائمة، حتى لا تغضب من عدم الأكل.

وهكـذا تطـوى صـحيفتها يومًا بعد يــوم، وشـهرًا بعد شـهر، وسـنة بعد سـنة، «**ومن عمل صالحًا فلنفسه**»**.!**

(...ولو مرة)

سمع يومًا أحد الدعاة وهو يتحدث عن الطاعة والعبادة ثم ذكر قولاً لعمرو بن قيس: «إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله ».

ثم تذكر حديث النبي عندما سأل أصحابه فقال: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**» قال أبو بكر-رضي الله عنه- أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر -رضي الله عنه- أنا، قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**» قال أبو بكر-رضي الله عنه- أنا، قال: «**من عاد منكم اليوم مريضًا**» قال أبو بكر-رضي الله عنه- أنا، قال رسول الله : «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**» [رواه مسلم].

وعزم بعد سماع هذا الحديث أن يفعل كل أبواب الخير هذه في يوم واحد، ثم راودته نفسه الدلالة على الخير، وعظم أجرها، فقال: لعل زوجتي تعلم بهذا فنكون سويًا في هذه الطاعة. وعندما أخبرها سرت

بــذلك وفــرحت. فقاما من الليل وتســحرا وأصـبحا صـائمين، وتصـدق الـزوج عنه وعن زوجته في ضــحى ذلك اليــوم على فقــير وجده، ولما أذن المؤذن لصلاة العصر قصـدا أحد الجوامع الكبيرة المعروفة بكثرة الجنائز فصليا معًا على جنائز عدة كانت حاضرة تلك الصــلاة، وزارا بعد خروجهما من المســجد مريضة قريبة لهما وأكــثرا من الـــدعاء أن يتقبل الله عز وجل ما عملا، وأن يغفر لهما ذنوبهمــا، وســارعا إلى بث هــذا الحــديث وتـذكير النـاس به للعمل والاقتـداء. **«ومن عمل صالحًا فلنفسه»**!.

العجوز العاملة

سخر الله عز وجل للإنسـان السـعي في أمــور الــدنيا، لا يكل ولا يمــل، في شــبابه وشيخوخته، في حال مرضه وصحته. لكن من أراد الله به خيرًا يسر له عمل الطاعة، وأولها همة في القلب، تحرك الجوارح.

قـال شـميط بن عجلان عن قيـام الليل لكبـــار السن وقد ضـــعفت أجســـامهم، وأصــابتهم الأســقام والأوجــاع، ومع هــذا

يقومون الليل قال: «إن الله -عز وجل- جعل قـــوة المـــؤمن في قلبـــه، ولم يجعلها في أعضـائه، ألا تـرون أن الشـيخ يكـون ضـعيفًا يصـوم الهـواجر، ويقـوم الليـل؟! والشـباب يعجز عن ذلك ».

وكانت صفية بنت سيرين توصي فتقول: «**يا معشر الشباب خـذوا من أنفسـكم وأنتم شباب، فـإني ما رأيت العمل إلا في الشباب». **وقبلها النـبي الـذي قـال في حـــديث عظيم: «**بـــادروا بالأعمـــال سبعًا، هل تنظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غـــنىً مطغيًـــا، أو مرضًـــا مفســـدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا أو الدجال فشر غـائب ينظـر، أو السـاعة أدهى وأمر»** [رواه الترمذي]**.**

امــرأة كبــير مســنة احــدودب ظهرهــا، وارتعشت أطرافها، وهزل جسمها، لكن الله عز وجل اسـتعملها في طاعته فهنيئًا لها هـذا الخير، وقد قـال ابن القيم في الفوائـد: (من أراد من العمـــال **أن** يعـــرف قـــدره عند الســـلطان فلينظر مـــاذا يوليه من العمـــل؟

وبأي شغل يشغله**؟).**

هذه المرأة ولت وجهها نحو الــدعوة إلى الله رغم كـــبر الســـن، وعـــدم القـــراءة أو الكتابة..

قـالت إحـدى الـداعيات: ذهبت يومًا إلى المستشفى في الصـباح البـاكر فـإذا بي أرى امرأة كبـيرة في الســن، تـأتي مبكـرة مثلي، ولعل ابنها أتى بها وذهب إلى عملـــــه، لكن طال تعجبي وهي تحمل كيسًا كبيرًا يخط منها على الأرض بين الحين والآخر، حـتى اسـتوت على كرسي في غرفة المراجعة فشــــمرت عن ساعدها وفتحت الكيس، ثم بـدأت تـوزع الكتب على المراجعـــات، وكلما أتت مراجعة جديـــدة وجلست قـــامت إليها وأهـــدتها كتابًا قـــالت الداعيـــة: فجـــاء موعـــدي وقمت إلى الطبيبـة، ثم إلى مراجعـات في المستشـفى انتهى بي إلى الصـــيدلية، ثم إلى عـــدت إلى مكـــــاني الأول الـــــذي أتيت إليه قبل أربع ســاعات، فــإذا المــرأة في مكانهــا، وتعمل عملهــا، فعلمت أنه من أكــبر الــداعيات، وما أتت إلى هذا المكـان إلا لهـذا العمل العظيم،

ومع تأكــدي من بعد منزلهــا، وكــبر ســنها، وضـعفها، ومع هـذا تحمل كيسًـا لا يحمله إلا الأشـداء من الرجـال، يا تـرى كم من امـرأة استقام أمرها؟ وكم من فتاة صلح حالها؟ كم من ســـافرة تحشـــمت؟ وكم من مفرطة أنـابت؟ وكل ذلك في مـيزان حسـنات هـذه المـــرأة العجـــوز لا ينقص من أجر الفاعلة شـيء! أليست هـذه نعمة من الله عظيمـة؟ بلى والله!

دعونا نأت لأمر أقل: كم مرة نذهب إلى المستشـفيات؟ قد يكـون مـرة أو مـرات، دعونا نستثمر هذه الفرصة بحمل الكتب إلى أمـاكن المـراجعين والمراجعـات. هـذا إن ضـعفت الهمة عن فعل المـرأة العجـوز وإلا فنحن أحق وأولى من الضـعيفة المسـكينة لكن! ذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء «ومن عمل صالحًا فلنفسه».!.

العزة لمن؟

«داداب»منطقة صـحـراوية قاحلــة، تقع على الحــدود بين كينيا والصــومال، وكــانت نقطة تجمع للاجئين الصوماليين الفـارين من جحيم الحرب الأهلية في بلدهم. فـاجتمع بها عـدد كبـير من الرجـال والنسـاء والأطفـال، يفوق ثلاثمائة ألف لأجئ. وقد أقـامت إحـدى عشـــــرة منظمة تنصـــــيري مواقع لها في معســـكرات اللاجـــئين، وفي وسط الحشد الهائل من المنظمـات الغربية لا توجد سـوى مؤسسة إســلامية وحيــدة- بــارك الله في جهودهـا- وهي مؤسسة الحـرمين الخيريـة، فأقامت في كل معسكر عشرات المسـاجد، وبدأت تعلم الأطفال وتدرسهم حتى بلغ عدد الطلاب في مدارســــــــها المقامة في تلك المنطقة أكـثر من ثلاثين ألف طـالب، وهـذه المعلومـات ليست جديـدة على القـارئ فقد كتبت فيها تقــــــــارير وافية لمن زارها من الـدعاة وكـذلك منـدوبي مؤسسة الحـرمين الخيرية.

في هـــــــذه البقعة الجــــــــرداء تظهر

الصـــراعات العجيبـــة، مع الفقر والمـــرض والحاجــة، وتسـعى المنظمــات إلى دعــوة المســـلمين إلى التنصـــر، بشـــكل علـــني ومباشر، وشـعار الجميع المبطن (النصـرانية أو الموت).

لا يرقبــون في مســلم إلاًّ ولا ذمــة. إنها حرب اجتمع فيها على المسلمين التنصير مع الجـــوع والعطش والفاقة والمـــرض! وفي وسط هـــذا الســـواد المظلم من دعـــوة النصارى، وجوع المسلمين وحاجتهم، جــرت أحـــداث بســـيطة، وواقعة ســـريعة تمثل الاعتزاز بالدين ورفع الرأس به، حيث طلبت الأمم المتحـــدة هنـــاك اجتماعًا للمنظمـــات العامــة، بما فيها مؤسسة الحــرمين، وكــان منـــدوب المؤسسة هنـــاك من الشـــباب السعودي، قال وهو يحــدثني: لما دعيت إلى الاجتمـــاع وجـــدت أن الموعد يوافق صـــلاة الجمعة، وكأنهم وقتوا للأمـر. فاعتـذرت لهم برسالة خطية بأنني مسلم، وهذا وقت صلاة الجمعـة، ولا يمكنـني إجابة الـدعوة، ونظـرًا لحــاجتهم لحضــوري لأمــور تنســيقية مهمة

أعـــــادوا الكتابة وســـــؤالي عن الـــــوقت المناسب.فأرسلت لهم بأن الساعة الواحـدة والنصف من ظهر يــوم الجمعــة، بعد انتهــاء الصلاة موعد مناسب، وكررت كلمة الصلاة، والإسلام في الخطاب كثيرًا.

قــال: فأجــابوني إلى طلــبي، ولما أديت صـــلاة الجمعة خطيبًـــا، يممت نحو مكـــان الاجتماع، وحين دلفت إلى القاعة وقد اكتمل عقد الحضور فإذا بــامرأة ســافرة في وسط الجمـــــع، مندوبة عن مؤسسة تهتم برعاية الطفولــة، فــتراجعت ولم أدخــل، فــأدركني المسئول المنظم للاجتمـاع وتسـاءل. لمـاذا عــدت؟ مــاذا جرى؟ قلت لــه: أنا مســلم ولا أجلس في مكــان فيه امــرأة ســافرة لست محرمًا لهـــا. فـــدخل عليهم ليبـــدي وجهة نظــري، وســمعتهم يتــداولون الأمــر، ثم بعد برهــة، إذا بــالمرأة تخــرج من الاجتمـاع وتمر بجــواري خارجة من القاعــة. عنــدما دخلت بعـــزة وشـــموخ، وجلست على كرسي معد لي، وضع أمامه اسم مؤسســـــتي. وبـــــدأ الاجتمــاع في وسط الحضــور الكبــير، وخلال

دقـائق فـإذا بي أسـمع صـوت المـرأة وقد أطلت بنصف رأسها مع الباب، وهي تستأذن في الـــدخول. فلما لمحتها إذ بها وضـــعت غطاء على رأسها. عنـدها أذنت لها بالـدخول وقلت بصـوت مسـموع: بشـرط أن تبقى خلفي حــتى لا أنظر إليهــا. فقبلت وسر الجميع بهـذا القبـول مـني وشـكروني على ذلك، وعندها أسهبت في الحديث عن تكـريم الإســلام للمــرأة، وكيف هي مكانة الأم، والأخت والزوجــة!؟ والعجيب أن أحــدًا لم يقاطعني، أو يستدرك علي! لكـني أصـدقكم الحـديث بهـذه التجربة دين الإسـلام .. دين العزة والشموخ، لكن من يرفع به رأسًا!

الشاب وقيام الليل

شــاب نحيل الجسم كثــير الحيــاء قليل الكلام، همه الإســلام، وأين مــواطن العمل لهـــذا الـــدين؟ إن رأيته فهو على عجلة من أمـــره يلقي لك ما لديه ثم ينصـــرف! هـــذا الشاب لم يتجاوز عمره السابعة والعشــرين ومع هذا خدم وقدم للإسلام الكثير.. تـرى له في كل عمل لبنة يضـعها، أو رأيًا يســديه، أو دعاء يزجيه!

كل هــذا المعلومــات يعرفها المقربــون منه ومن يعملون معه. لكني سألت يومًا من ســافر معــه، عن رحلتهم الدعويــة، وكيف أمـورهم وهل واجهـوا مشـقة أم لا؟ فأجـاب صاحبنا بالنفي وحمد الله على تيسيره. فلما سـألته عن فلان الشـاب النحيل هـذا، تعجب من أمر لم أكن أعرفه من قبـل. فقد تحـدث عن معرفة وصـــحبة في ليـــال طويلة فيها التعب، والإرهــاق، والمشــقة، والعنت، ومع هذا أثنى عليه بأمر تهفو له النفـوس، وتتطلع له القلـــوب، قــال: إنه صـــاحب قيـــام ليل طويـــل! ســـكت وظننت به خـــيرًا، فغـــالب

الشباب الذين يعملون في حقل الـدعوة لهم ورد يـومي قل أو كـثر. لكـني تعجبت عنـدما قال لي: إن هذا الشـاب النحيل يقـوم الليلة الواحدة بخمسة أجزاء من القرآن! وما رأيته نقص طوال رحلتنا عن ذلك! خاصة في أيـام نواجه فيها التعب والنصب والإرهاق.

لقد كـبر الشـاب في عيـني وكلما رأيته بعد هذه المعلومة خطـرت في بـالي آية من كتـاب الله عز وجـل: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِـرَةَ وَسَـعَى لَهَـا سَـعْيَهَا وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُورًا**﴾ [الإسراء: 19] حمد الله على نعمة هدايتـه.. غيره يقوم الليل في رقص ولهـو، وهو يقـوم مصـليًا عابـدًا.. غـيره يـركض في مهـاوي الرذيلة، وهو يركض في سبيل الله عز وجل. «ومن عمل صالحًا فلنفسه»!

وقفة: كان منصـور بن المعتمر يصـلي في سـطحه، فلما مـات، قـال غلام لأمـه: يا أماه: الجـذع الـذي كـان في سـطح آل فلان ليس أراه؟

قـالت: يـابني ليس ذاك بجـذع، ذاك

منصور قد مات.

الجارة الداعية

عندما جئت إلى الريـاض لم أكن أعـرف بها أحدًا، وحرص زوجي جزاه الله خـيرًا على أن أتعـرف على أخـوات طيبـات، قـال لي: إنهن نشيطات في الدعوة إلى اللــه، فعسى أن تتعاوني معهن.. ولكن مرت الأيام ولم أر أثـرًا لـذلك التعـاون، بـالرغم من أنـني كنت أتحدث معهن عن الأعمال التي كنا نمارسها، وبينت لهن أني على اســـتعداد للمشـــاركة معهن في أي عمل دعــوي، ولكنـني لم أتلق أي إجابة.. مرت عليَّ الأيـام ثقيلـة.. ثقيلـة.. فقد كانت الدعوة إلى الله تنتشلني انتشــالاً، مما أنا فيه، وتنسيني همومي الدنيوية لتجعل همي هم الآخــرة.. فكيف لي أن أعيش دون دعـــــوتي؟... رجعت إلى أوراقي وأقلامي أنظر إليها بأسى.. وما وجـدت طريقًا ســوى أن ألخص بعض الكتيبـــــات، وألخص بعض الأشرطة، أو أن أكتب مواضيع معينة، أحاول أن أبحث فيهـا.. وأحيانًا كنت أكتب فوائد في بطاقـــات أعطيها زوجي ليســتفيد منهـــا.. وأحيانًا أبحث في المجلات الإســـــلامية عن

مواضيع تصلح لأن تكتب في نشرات، وتـوزع في المــدارس، وهــذا ما تم بالفعل والحمد لله، إذ لابد أن أشـارك ببعض الأعمـال، ولابد من أفكار دعوية تـوزع على منطقتنـا، وعلى المدارس. وهكذا مرت سنة كاملة على هـذا الوضـع.. إلى أن عرضت على جـارتي إلقـاء دروس في منزل إحدى الأخوات... حقيقــة.. لم أكن متمرسة في إلقاء الـدروس بكـثرة.. فقد كنت مقلة جــدًا.. كنت أفضل الــدعوة الورقية (أقصد الكتابة وإعـــداد النشـــرات واختيار الكتب وهكـذا) .. وكنت أشـعر أنـني لست بالجريئة عند مواجهة الناس.. ولكنــني هنا شـعرت بـأنني لابد أن أقبـل، فهـذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لي.. فتوكلت على الله وذهبت، وما تـوقعت أن يكـون قبـولهن إلى هـذه الدرجة ولله الحمد والمنة من قبل ومن بعد.

وتكــــرر هـــــذا الأمر والفضل لله أولاً وأخـــيرًا.. ثم لتفهم زوجي لــــدور المــــرأة المسلمة في الدعوة.. ما كان يتوانى، جـزاه الله خيرًا عن إيصالي لمعـارف جـارتي مهما

بعد البيت.

من المواقف الــتي تــأثرت بها : أنــني حـــدثتهن مـــرة عن الظلم.. وبينت لهن أن المرأة تظلم زوجها عندما تسـيء معاملتـه.. وذكـــرت لهن مجموعة من الأحـــاديث عن حسن معاملة الزوجة لزوجهـــــا.. قلت لهن عن المـرأة الـودود الولـود العئـود، الـتي إذا غضب عليها زوجها أتته فوضـــــعت يــــدها وقالت: لا أذوق غمضًـا حـتى ترضـى!! قلت لهن: العئود التي تعود إلى زوجها لتسترضـيه في حــال كونها مظلومة أو ظالمــة، بل في حـال كونها مظلومة أكـد.. إذ لا فضل لها في الاعتذار إن كـانت ظالمــة، ولكن الفضل كل الفضل أن تعذر وهي مظلومة.

حدثتهن عن ظلم الإنسان لجوارحه أذنيه ... عينيه .. يديه .. باسـتخدامها في معصــية الله.. وكم حزنت عندما علمت أن منهن من ســهرن تلك الليلة على ســماع الموســيقي والرقص.. كيف حدث هـذا وقد حـدثتهن عن الظلم.. كيف يظلمن آذانهن.. في ســــماع مالا يرضي الله ويسـتغللن نعمة السـمع في

معصية الله.. تأثرت حينها..

ولكن بعد فترة قصيرة، جاءتني جارتي لتخبرني بأن فلانة التي حضرت معنا الدرس، في ذلك اليوم تجهزت للخروج، في نفس اليوم الذي سمعت فيه الدرس.. تجهزت لحضور حفلة زواج.. وكان زوجها منشغلاً بإصلاح بعض الأعمال في منزلهم.. فلما رآها تهتم بالخروج، وقد كان عصبي المزاج لا يتورع عن السب والشتم.. منعها من الخروج وشتمها.. تقول: رجعت وهي تبكي، وبعد أن دخل غرفته وهي لا زالت تبكي.. تذكرت ما قلته لهن عصرًا.. تقول: فاعتذرت له وهي تبكي، تقول جارتي: ففوجئت به يبكي معها، فكان بكاؤها فرحة باستجابته الفورية بالرغم من قسوته فهي تراه لأول مرة باكيًا.. فما استطاعا تلك الليلة أن يناما من شدة التأثر.. إنها بركة الاستجابة لأوامر الله سبحانه وأوامر رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى فلله الحمد والمنة.. تذكرت حينها أن من أراد أن يدعو إلى الله يبدأ ولا ينتظر

مســـاعدة من فلان أو علان.. أو أن يقـــول سأنتظر أخـوات ملتزمـات يوجهنـني ويبـدأن معي.. فلنفـرض أنه لن يلتقي بمن يسـاعده أو من يبـــدأ معه فهل يضع يـــده على خـــده ويضيع أوقاته هـدرًا؟ إذن المطلـوب أن نبـدأ والله سـبحانه يوفق ويســدد..«**ومن عمل صالحًا فلنفسه**».!

«كتاب الله عز وجل»

وعى قلبها حديث الرسول : «**خيركم من تعلم القــرآن وعلمه**» فســعت إلى تعلم كتــاب الله عز وجل حــتى أتمت حفظه في مدة وجـيزة، وعنـدما غلبها الكسل وحب الراحة؛ أسرت إليها إحدى صديقاتها وقـالت: أريد أن تعـــرفي مقـــدار الأجر العظيم في تعليم كتاب الله عز وجل. لقد قـرأت حـديث النبي وأريدك أن تتمي آخر الحديث: «**من دعا إلى هــدى كــان له من الأجر مثل أجـــور من تبعـــه، لا ينقص ذلك من أجورهم شـيئًا**» [رواه مسـلم]**.** هـاك. لو أن طالبة تعلمت علي يــديك ســورة الفاتحة فحســب، ثم لما شــبت عن الطــوق وبلغت سن التكليف وصــلت فرضــها، فإنها تقــرأ الفاتحة في اليوم والليلة سـبع عشـرة مـرة. وعــدد حــروف ســورة الفاتحة 148حرفًــا. فمعــنى ذلك أنها قــرأت في اليــوم والليلة 2516 حرفًا والنــبي يقــول «**من قــرأ حرفًا من كتـــاب الله فله به حســـنة. والحســـنة بعشر أمثالهـــا، لا أقـــول**

«ألم» حـرف، ولكن ألف حـرف، ولام حرف، وميم حرف» [رواه الترمذي].

وعلى فرض أنها تصلي النوافل والسـنن الـرواتب، فكم مـرة تقـرأ الفاتحـة؟ وعلى فـــرض أن هـــذه الطالبة تـــدرس الفاتحة لطالباتها غدًا.. الأمر كبير والأجر عظيم.

ولهـذا كـان أبو عبد الـرحمن السـلمي جالسًا يقرئ القرآن ويعلمه للنـاس سـنوات طويلة من خلافة عثمـــان بن عفـــان -رضي الله عنـه- إلى إمـرة الحجـاج، أي أكـثر من ستين عامًـا. وعنـدما قيل له في ذلك بعـدما رق عظمه، وكبر سنه سـاق حـديث النـبي ﷺ: **«خيركم من تعلم القـرآن وعلمه»**، ثم قـال: هـذا الـذي أقعـدني مقعـدي هـذا قـال الإمـام الـذهبي في السـير عن هـذا المعلم. رئي بعد موته فقيل له مــاذا فعل الله بـــك؟ قـــــال: غفر لي بتعليمي الفاتحة أطفـــــال المسلمين.

عنـــدها شـــمرت إلى هـــذه الأبـــواب العظيمـــة، وجلست مجلسًـــا فيه ذكـــر، بل أعظم الذكر، وهو تلاوة كتاب الله عز وجــل،

وكــان لها في الصف الواحد أكــثر من ثلاثين طالبة أتممن في الصف الأول جـــــــزء عم كاملاً! عنـدها قـالت: سـوف أسـتمر.. وهـذا الــذي أقعــدني مقعــدي هــذا «**ومن عمل صالحًا فلنفسه**».

ما زال في الأرض	**للحي يدركه من**
ولم يزل في	**محمية سكنت**
ولم تزل نخلة	**مليئة بعذوق التمر**
ولم تزل واحة	**فيها مشاتل من**

النية

من أعظم حرمان العبد حرمانه من العلم الشرعي! تأمل.. كيف بزارع في أرض لا يعرف موعد الزرع! ولا الحرث! ولا الأعمال الزراعية الأخرى! قد تنبت أرضه لكن بثمرة قليلة على حسب علمه، وقد كان يكفيه من العلم اليسير لكي تنتج هذه الأرض المحصول الوفير والثمرة الطيبة! وهكذا العلم الشرعي لأن الدنيا مزرعة الآخرة.

جلس يومًا في مجالس وكان المتحدث، يتحدث عن النية، وأنها الأمر الذي فاز به الفائزون، وسبق به السابقون، فإصلاح النيات يصلح العبادات، وبإفساد النيات تفسد العبادات. ثم عرج على أمر تعدد النية وأفاض في ذلك، وذكر قول أحد العلماء: «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك».

ثم ساق حديث النبي ﷺ: «**إنما**

الأعمال بالنيات..» [متفق عليـه: أخرجه البخـاري (1)، ومسـلم (1907) من حـديث عمر بن الخطاب رضي الله عنـه] ثم أفـاض في مثال بسيط، وهو النية عند الوضوء فقال تتعـدد النيـات ويتضـاعف معها الأجر فـأنت تنوي الوضوء امتثالاً لأمر الله عز وجل: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُـوهَكُمْ...**﴾ [المائدة: 6] ثم أنت تمتثل أمر النبي ﷺ: «**وصلوا كما رأيتموني أصـلي**» ثم أنت تتوضًا لرفع الحدث والدخول في الصلاة.. ثم أنت تتوضًـــا وتنـــوي كما في الحـــديث أن تتساقط خطاياك مع قطرات الماء.. وهكذا. كم نية في الوضـــوء؟ وكم تنـــوي اليـــوم إذا توضأت؟ بعضهم نسي النية فتحولت العبـادة إلى عادت يؤديها!. تأملوا في حال من يــزور أقاربــه، وكم نية ينويها بهـذا الزيـارة؟ صـلة رحم، وتعليم جاهل، وأمر بمعـروف، وزيـارة إخوان في الله، وغيرها!.

بعد هـــذه الكلمة البســيطة في كلماتها العظيمة في نفعهـــا، لا زال يتمثل بين الحين والآخر أنه مزارع في هذه الدنيا، فيجب عليه

إن أراد الارتقـــــــاء بزرعه وحسن ثمرته أن يسلك أفضل الطرق وأنجعها، ولا يتم له ذلك إلا بـالعلم. فكيف بـأمر الـدين والجهل يخيم علي من كل ناحيـــــة! كيف بي أســـــير إلى الآخـــــرة وأنا أبحث عن الجنة وأزرع لها دون علم فتثمر حنظلاً وشوكًا!

وعندما عزم الأمر وبيت النية على طلب العلم الشـرعي جاءته البشـارة العظيمة من حــديث الرســول ﷺ : «**من ســلك طريقًا يلتمس به علمًا ســـهل الله به طريقًا إلى الجنة**»..ثم تــــــــذكر عظم الأجر في الطلب وحين البـــذل فســـعى دون تـــردد «**ومن عمل صالحًا فلنفسه**».

المربية الصالحة

ترددت كثيرًا عندما تقدم لها زوج توفيت زوجته، وتركت له طفلين، وعندما استخارت الله عز وجل واستشـــــارت من تثق فيـــــه، قالت: أحتسب عند الله عز وجل تربية هذين اليـــتيمين، ولعل الله عز وجل أن يـــأجرني على حسن التربيـــة، وتنازعها النــــاس في ذلك.. كيف تربين من ليسوا بأبنائك؟ ســوف يفسدون حياتك! تخرجين إلى الدنيا بولدين! ليس لك إلا الهم والغم! لكنها اســــــتخارت واستشــارت فأقــدمت على الــزواج، وهمها كيف تربي الصــغيرين؟ فكــانت لهم نعم الأم الحانية والمربية الحازمـــــــة، فنشآ وهما لا يشــعران إلا بــالحب والعاطفة والحنــان مع حسن تربية وتعليم. ومـــرت الأيـــام ورزقها الله عز وجل بأبناء فكانت تمر بالأزمات حين يتشــاجر الصــغار أو بكــاء البعض! فكــانت تخاف الله عز وجل في اليـتيمين وترعاهمـا، بل وتقـدمهما في مواضع على أبنائهـا! ولقد عــانت الكثــير، خاصة عنــدما كــبر الطفلان وعرفا أن أمهما تـــوفيت وعلما أن هــــؤلاء

الأخـوان غـير أشـقاء، مع حـدة في طبـاعهم أخذوها من والـدتهم، لكنها صـبرت وصـبرت وقــالت: أردت وجه الله عز وجل ولن يخيب ظــني، فكـانت المــرأة الناصــحة، والمربية الصـــادقة. محافظة على العبـــادات وتعويد على حسن الخلق، حـتى شـبوا عن الطـوق، وكـــبروا وتفـــرق الأبنـــاء في كل واد. لكن اليتيمين يعودان لها بين صـبح ومسـاء وكأنها أمهما الــتي أرضـعتهما!قــال لها زوجها يومًا وقد رأى دمعة على خدها والابن اليـتيم يقبل رأســـــها! لعل هــــــذا يا أم فلان من عاجل البشـــرى لـــك! لقد رأيت ثمـــرة التربية في الـدنيا صـلاحًا وبـرًا وأرجو الله عز وجل أن لا يخيب ظنك بجنة عرضها السموات والأرض.

قالت في نفسها وهي تسترجع السنوات الطوال: تركت أشياء أحبها كزوجة، وتــركت أمــورًا وتـركت و تـركت .. لله عز وجـل، ثم لأربي اليتيمين، وعوضني الله في الدنيا خيرًا وأرجو أن تكون الآخرة أعظم وأكبر!.

وقفـة: قـال عبد الـرحمن بن مهـدي: والله لا تجد فقد شيء تركته ابتغاء وجه الله،

كنت أنا وأخي شـريكين فأصـبنا مـالاً كثـيرًا، فـــدخل قلـــبي من ذلك شـــيء فتركته لله وخرجت منه، فما خرجت من الدنيا حــتى رد الله علي ذاك المال. عامته إلي وإلى ولدي. زوج أخي ثلاث بنات من بني، وزوجت ابنــتي من ابنــه، ومــات أبي فورثته أنــا، فرجع إلي وإلى ولدي في الدنيا[1].

---

1 () صفة الصفوة (4/6).

سنة التعدد

خلال سـنوات مضت وبتـأثير الإعلام العجيب أصـبح تعـدد الزوجـات جريمـة، وأصـبحت النظـرات السـاخطة توجه نحو الرجل المعـدد، أما المـرأة الأولى أو الثانية فإنها لا تحسد على ما فعل زوجهـا، فهي الناقصة وهي المغفلة وهي...!

عبد الله رجل مثـالي في حياتـه، وفي حسن أدبه وخلقه أما عن ديانته فأحسبه من الأخيـار.. تـزوج الأولى وأنجب منها أطفـالاً، وكانت زوجته نعم الأم والمربية، شاركته في الهموم والغموم، وفي الأفراح والأتراح.

وحين أطـالت التفكـير في أمر زميلة لها مطلقـة، مضى على طلاقها سـنوات ولم يتقـدم إليها أحـد، ذكرتها لزوجها وحثته على الزواج بها. وكـان الأمر كـذلك وألف الله عز وجل بين قلـبي الزوجـتين فكانتا كـالأخوات، وكـان الرجل عـاقلاً، حكيمًا طبق شـروط وواجبـات التعـدد، أحسن في العـدل قـدر المستطاع، فسارت حياته على خير ما يرام، وكـان من تعجب النـاس كيف اسـتطاع

التوفيق بين الزوجــتين؟! بل وكيف ســارت حياته دون مشاكل تذكر؟!

وكان الزوج محبًا للأيتام والأرامــل، ودعا الله عز وجل أن يجعله ممن يرعــون الأيتــام والأرامل ويقومــون بحــاجتهم فيسر الله له العمل في أحد المــبرات الخيريـــة، فقـــام بالرعاية والكفالــة، وكـأنهم أبنـاؤه، بل كـان يتابع في مدرسته الطلاب الأيتام هل تنــاولوا مثل غيرهم من الطلاب طعامًا في الفســحة المدرسية أم لا؟

ومرت الأيام وهو على تلك الحـال، حـتى علم بأرملة تـوفي عنها زوجهـا، وكـان زوجها من أهل الصلاح والخـير، وتـرك خلفه سـبعة أطفـال. عنـدها راودته فكـرة الـزواج بهـذه الأرملة، فتلمس الآراء.. وما أكثر من عارض هذا الـزواج! امـرأة كبـيرة وسـبعة أطفـال! وعندها تقدم لهذه الأرملة المسكينة،فقـالت : أريد صغاري معي! فقال: والله ما تقـدمت إلا لهؤلاء الصغار. وكــان الله عز وجل رحيمًا بهــؤلاء أمًا وأبًا فــرزقهم زوجًا مشــفقًا على أمهم، ورزقهم أبًا حنونًا عوضــهم بعضًــا من

حنان وعاطفة والدهم!

بعد شهور .. قال الزوج كلما تـذكرت أن عنـدي سـبعة صـغار أعـولهم سـارعت إلى شــراء ما يريــدون، وكلما جلست وســطهم تذكرت مكان والدهم فأخفي الدمعة! وجعل الله له مع الثلاث زوجـــات، مـــودة ورحمة وســكن ما رأى مثلها في حياتـــه، وفتح الله عليه من رزقه ما لم يكن ينتظـــره! «**ومن عمل صالحًا فلنفسه**»...

الزوجة البارة

تزوجت من شاب يقيم مع والدته، ويبر بها ويتابع حالتها الصحية كل يوم، فقد كانت مقعدة تحتاج إلى عناية خاصة!

فوجئت الزوجة بالأم وحالها! وكان لرفيقات السوء صولة وجولة: ماذا تريدين بهذه العجوز؟ أين أبناؤها وبناتها؟ سوف تحرمك من الخروج والدخول؟ وكان الشيطان يبتسم فرحًا مسرورًا بحديث أولئك النسوة!

لكن الزوجة العاقلة قالت: ساق الله الخير إلى سوقًا! أخدم امرأة مسلمة ديانة وقربة إلى الله عز وجل، وأحتسب ذلك عند الله!

نعم لقد حرمتني من الخروج كما أريد.. لكن الله عز وجل أنزل علي السكينة، وأقر عيني بمحبة زوجي لي!والله إني لأشعر بالتوفيق وألامسه كل يوم في حياتي!

تقر عيني بلقمة أناولها إياها صدقة كل يوم! تقر عيني بتعليمها آيات من كتاب الله، تقر عيني بمساعدتها على الوضوء والقيام

للصلاة! لقد أعانتني على نفسـي، ورحمـني الله بوجودهـا، فأصـبحت سـعادتي أن أبقى في مملكـتي الصـغيرة لا أغادرهـا.. وإن خرجت فعلى عجل ووجـل! لا تهنأ نفسي ولا ترتـاح، إلا إذا دخلت بيـتي فـإذا بي أسـمع الدعاء والذكر والتكبير والتهليل! لقد وجـدت حلاوة وسـعادة لا يعـدلها الخـروج لحضـور زواج أو مناسبة! انشـراح في الصـدر وبهجة في النفس! وأدعو الله أن يجعل ذلك العمل خالصًا لوجهه الكريم!

وقفـة: قيل لأبي عثمـان النيسـابوري: ما أرجى عمل عندك؟ قال: كنت في صبوتي يجتهد أهلي أن أتزوج فآبى، فجـاءتني امـرأة فقـالت: يا أبا عثمـان! أسـألك بالله أن تتزوجـني، فأحضـرت أباهـا-وكـان فقـيرًا- فزوجني منها، وفـرح بـذلك. فلما دخلت إلي رأيتها عوراء عرجاء مشوهة!! قـال: وكـانت لمحبتها لي تمنعـني من الخـروج، فأقعد حفظًا لقلبها ولا أظهر لها من البغض شـيئًا وإني على جمر الغضي من بغضـها، قـال فبقيت هكذا خمس عشرة سنة حتى مـاتت،

فما من عملي شـــيء هو أرجى عنـــدي من حفظي لقلبها.[1]

---

1 () صيد الخاطر: 349.

بر الوالدين

جد في الحصول على وظيفة في مدينته الــتي تخــرج منها والــتي كما قــال: لا يطيق الخـــروج منهـــا..فهو فيها مثل الســـمكة في المـــاء!.. فقد كـــان له أصـــحاب وأصـــدقاء ومعارف وجيران. شاب يحب الناس ويـأنس بمجالســـتهم ومحـــادثتهم. وأعانه الله على إيجاد الوظيفة التي يرغب في المكـان الـذي يحب!

بــدأ عمله في جد ونشــاط، محبوبًا لــدى زملائه دمث الخلــق، حسن المنطــق، ولهــذا بدأ يترقى في منصبه الــوظيفي وتحظى من سبقوه بسنوات!

قــال له يومًا أحد أصــحابه: لعل توفيقك في هذه الوظيفة بسبب برك بوالديك! قال: أرجو ذلك فهذا من علامات البشرى لي بــأن الله عز وجل تقبل مني القليل!

وأراد الله عز وجل أن يجعل الــبر امتحانًا للشــاب، فقد ســمع والــده يومًا يثــني علي قــريتهم، ومــزرعتهم المهملة هنــاك. وقــال الأب في معــرض حديثــه.. أتمــنى أن أعيش

بقية عمري هناك..

انتهى الحـديث لكن الشـاب بـدأ يفكـر.. هذه رغبة أبي، ولعل من البر أن أحققها لــه، وأجعله يهنأ بهذه الأمنية في هذه السن.

وكـان الغد يومًا مشـرقًا في حيـاة الأب، فقد بشـــــره الابن، أنه ســـــوف ينتقل إلى القرية، وسوف يقيم هنــاك. لكن الأب أظهر التردد وعدم الرغبة في المشـقة على الابن، ثم أطلق من لســـــانه كلمة .. والوظيفة يا بني!

قال الابن: الوظيفة هي أن أبر بك.. هذه وظيفـتي الـتي أتقـرب إلى الله عز وجل بها مع الطاعات الأخرى!

تلعثم الأب ونــــزلت دمعة من عينه على هذا الـبر ورفع يديه إلى السـماء ودعا بـدعاء حـار متواصـل، لانقطـاع له وسـأل الله للابن التوفيق في الــدنيا، والآخــرة، وكــان آخر ما دعا له به أن يســــكنه وذريته الفــــردوس الأعلى!«**ومن عمل صالحًا فلنفسه**»..

الفهرس